المثقف و الأيديولوجيا الإسلاموية في رواية متاهات ليل الفتنة

لـ: احميدة عياشي "أنموذجا"

د. غنية بوحرة جامعة باتنة.

الملخص:

إن رواية متاهات لـ احميدة عياشي كغيرها من روايات الأزمة التي صورت ذلك الصراع القائم بين السلطة والجماعات الإسلاموية منذ بداية الاضطرابات وتشابك الأحداث، ووقوع المثقف بين هذين الاتجاهين، بين المطرقة والسندان وبين نار السلطة وجحيم الإرهاب. لذلك سوف نحاول في هذه الدراسة أن نتناول موقفه من هذا التيار الإسلاموي. لكن قبل ذلك يجدر بنا أن نشير إلى الحركة الإسلامية في الجزائر وتحول التيار الفكري إلى قوة سياسية والإسلامية إلى إسلاموية.

Resume

In the « Mazes » novel of « Hmida Aichi » like other novels that have shown clearly the crisis of the struggle standing between the high power and the Islamic groups. From the starting of the conflicts as well as the events have because serious and complicated the cultivated pesons have fallen between these two directions. The hammer and the anvil , else between the fire of the high power and the hell of terrorisom. For that ,we will try in this study to discuss his point of view from this Islamic direction and clarifying it , but before that we have to allude the Islamic movement in Algeria and the change of the mental view to a political and Islamic power

الحركة الإسلامية في الجزائر وتحول التيار الفكري إلى قوة سياسية:

إذا كانت الخطوة التي قام بها السادات في التسعينات بالإفراج عن الإسلاميين والسماح لهم بالمشاركة السياسية قد أفرزت عن نتائج سلبية ، فإنه في الجزائر وبحل هذه الحركات واعتقال زعمائها من طرف السلطة هو الذي أدى إلى نتائج عكسية وزادت الهوة اتساعا بين الإسلاميين والسلطة ،وزادت رغبتهم أكثر في إقامة دولة إلسمية بخاصة بعد انتصار التورة الخمينية في إيران 1997 والغزو الروسي الشيوعي لأفغانستان ، والتأثر بحركة الإخوان المسلمين بمصر فقد كانت فترة الثمانينات في الجزائر بداية الاضطرابات والصدمات بين الإسلاميين واليساريين ، كحادثة الأغواط وماصاحبها من اعتقالات 1989، وكذاحوادث سيدي بلعباس ومظاهرات وهران

وأحداث بن عكنون الدامية 1980، وماصاحب هذه الأحداث والمظاهرات من اعتداءات على الإسلاميين واعتقالهم أو نفيهم ، ومضايقة المتحجبات ومحاولة غلق المساجد[1]
لقد كانت هذه الأحداث بمثابة الإرهاصات الأولى لانفجار الشعب الجزائر في 5أكتوبر 1988 ، إضافة إلى المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي كان يعانيها ، وظهور الطبقية البورجوازية ، ليعلن أخيرا عن غضبه ويطالب بضرورة التغيير وتحسين الأوضاع ، فوجدت الحركات الإسلامية أرضا خصبة للظهور ومعاودة تحركها من جديد متأثرة بالاضطرابات وتدهور أوضاع البلاد "وقد اتسمت بسعيها بضرورة إعادة الاعتبار للدين الإسلامي والدعوة إلى إحياء العقيدة والحث على أداء الشعائر والأخلاق الإسلامية والأهم من ذلك إقامة دولة إسلامية مبنية على مبدأ الشورى وتطبيق مبادئ الدين وأحكامه "[2]

ومن أبرز هذه المنظمات الإسلامية ميلاد قوة سياسية جديدة هي " الجبهة الإسلامية للإنقاذ التي ضغطت على السلطة بضرورة التعددية الحزبية والسياسية وإلغاء نظام الحزب الواحد، وإجراء انتخابات للتعبير عن حرية الفرد الجزائري في اختيار من يمثله. وبالفعل كان لهم ذلك حيث فازت هذه الحركة في الدور الأول من الانتخابات بعد أن «قدمت برنامجا يدعو إلى إحلال الإسلام محل الأيديولوجيات المستوردة من أجل وحدة الصف والمحافظة على مرتكزات الأمة وتخليص الإنسان من نزعة الأنانية حتى لو كلفها ذلك الصدام بعنف مع الدولة، كما أعلنت بأنها تريد أن تدخل في صراعات مع الآخرين [...] لتهذيب الطرح الإسلامي والقضاء على ما يعتريه على يد بعضهم من شوائب»[3]، إلا أن هذه الفرحة لم تدم طويلا إذ ألغيت الانتخابات في دورها الثاني «وبحل الجبهة الإسلامية للإنقاذ في ربيع 1992 جنح جزء من المعارضة إلى استعمال العنف كوسيلة موازية للعمل السياسي في التعامل مع السلطة القائمة، ومن هنا بدأ مسلسل العنف الدامي»[4] ، وبذلك يمكننا القول أنها بداية تحول الحركة الإسلامية إلى حركة إسلاموية وبدأت تنسى شيئا فشيئا هدفها الرئيسي الذي كانت تسعى إليه بلجوئها إلى العنف الأعمى، مما أدى إلى التشابك وتعقد الصراع. «فكان القادة الإسلاميون هم البادئين بتشبيه معركتهم بالكفاح المجيد من أجل التحرر الوطني، وظهروا بمظهر المؤمنين خدام المثل العليا »[5]. كما أنهم يعتقدون أن «النضال ضد النظام العسكري والمادي المتعاون مع الاستعمار هو فريضة مقدسة. على جميع المؤمنين الالتزام بها من أجل الدفاع عن حرية الجزائريين»[6] فكان أعضاء الحزب يدعون إلى الجهاد المقدس متأثرين بتجربة الإخوان المسلمين وبآراء سيد قطب في كتابه المشهور "معالم في الطريق"، وبأن كل ما يتعرض له الحزب إنما من قبيل الابتلاءات، وذلك لفهمهم الخاطئ للقرآن وأخذهم بظواهر النصوص وتطبيقها إيمانا منهم أنهم يطبقون شرع الله. وهذا ما سنحاول إبرازه من خلال رواية متاهات التي عكست هذا الاتجاه وتأثر الشخصية الروائية عامة بهذا التيار، أو بالأحرى وقوعها في شرك هذه الأيديولوجيا.

1. المثقف والجماعات الإسلاموية:

إن القارئ لرواية متاهات يلحظ التماهي بين الأنا الساردة والأنا المسرودة أو التطابق بينهما في الرؤى والمواقف، حتى حينما اختار الكاتب اسماً لشخصيته الرئيسة فضل أن يكون نفس اسم الكاتب "احميدة" الذي يشتغل هو الآخر بالصحافة. أراد أن يحكي مأساة وطنه من خلال قصة حياته وعمله في الصحافة ونقله للأخبار والأحداث التي كان شاهدا عليها، والتي كان يسعى إلى إظهارها ليبرز معاناته كمثقف يسعى إلى كشف الحقائق وفضح المستور من أجل إعادة هيكلة الأمور، والنظر في قضايا المجتمع. إنه يكتب بذلك رواية السيرة الذاتية، ويتخذ من حياة المؤلف أو فترات منها موضوعا لها للبحث والمساء[7]

حتى يرصد مراحل صدامه مع السلطة والجماعات الإسلاموية. وفي هذا السياق يسرد صراع المثقف مع الخطر الأصولي والمد الإسلاموي الذي شغل بال الكاتب حتى غدا التيمة المسيطرة على النص الروائي. لذلك جاءت رواية "متاهات" لتكشف للقارئ «حقيقة الجماعات الدينية (التي) تقوم على تدين ناتج عن ظروف اجتماعية قاهرة ثم تتحول إلى عقد تظهر في شكل ملتح، قد يتغير بتغير الظروف التي أوجدته. وهنا نتحدث عن غياب الوعي والاعتقاد الصحيح المبني على قناعة راسخة وتفكير متأني يعي ما يعتقد به»[8].

إذا كان غياب الوعي والاعتقاد الخاطئ والتهور والاندفاع من سمات الشباب الذين انساقوا وراء هذه الأيديولوجيا، فكيف للإنسان المثقف الواعي والعارف بأمور دينه ودنياه، الذي يعول عليه أفراد مجتمعه في التغيير والأخذ بيده أن يكون هو الآخر ضحية هذا الفكر المتعصب، ويسقط في متاهة هذه الأيديولوجيا .

شخصية "برينو" السكرتير الأول في السفارة، حين زار الجزائر فترة غليانها تنبأ لها بالبركان والزلازل فشعر أن «الكلمات تدخل ساحة الحرب. كل شيء بدا كأنه يستعد لحرب طويلة. المساجد، قدامى البارونات والبارونات الجدد. اللغات. الأيديولوجيا كلهن بزغوا إلى سوق السياسة كالعفاريت»[9]. فأول ما لفت انتباه "برينو" أثناء زيارته؛ تلك التحولات التي شهدتها الجزائر وشغلت باله، لذلك رغب في معرفة الكثير عنها وعن القوى الديمقراطية الصاعدة، وعن النخب الجديدة في السياسة، فكان أول ما شد إعجابه هذه القوى الجديدة ذات التيار الإسلامي فيقول: «جذبتني تلك القوى التي راحت تكتسح كالواد الرهيب الهائج كل ما تجده في طريقها. الأصولية الإسلامية التي أضحت تبدو كالبديل الوحيد في هذا البلد المشبع بالثورة والراديكالية وبالحب المقدس للتضحية فرضت نفسها علي. أثارني خطابها الجارف وعنفوان قواعدها والملتفين حول قياداتها المبشرة بأمجاد الإسلام المبكر...»[10].

جاء في كلام برينو الملفوظات التالية: (جذبتني تلك القوى، فرضت نفسها علي) لو تأملنا جيدا في دلالة الفعلين (جذبني، وفرضت) وجدنا أنه إما أنه كان في حالة اللّاوعي حين

قبل الانتماء إلى هذه الجماعة، أو أنه تحت ضغط وقوة جامحة دفعته إليها بتأثير أيديولوجيتها عليه. فالفعل جذب يدل عن نوع من القوة التي دفعته إلى التمسك بها، فكأنه انجذب إلى تلك القوى بفعل قوة كامنة داخلها أثرت فيه وأن هناك فعلا مغناطيسيا أو رابطا قويا يجمع بينهما. أما الفعل فرض فيحمل معنى الإلزام والوجوب؛ وكأنه يريد أن يقول أنه أمر مفروض عليه ويجب إتباعه شاء ذلك أم أبى، لأن الفرض ينفي معنى الخيار ويقتضي الامتثال لهذه القوى والرضى بها .

أما حينما يقول (أثارني خطابها الجارف) نحس وعيه بهذا التيار وقبوله والاهتمام بأفكاره وآرائه-التيار- التي جعلته يُبهر بها إلى حد الإثارة ، بخاصة حينما يتعلق الأمر باستعادة أمجاد الإسلام بكل ما يحمله من تراكمات فكرية ورؤى دينية، «هنا يأتي الدور الوظيفي لهذا الزمن القادم، إنه امتصاص فعل قوي يجذب إليه الفرد وينهيه، يحوله بدوره إلى عنصر لا علاقة له بزمنه الحقيقي والفعلي»[11]، وفي حالة لا شعور المرء بزمنه الحقيقي يسهل على الجماعة احتواء مثل هذه الفئة وضمها إلى صفوفها.

إذا كان "برينو" نموذجا للمثقف الذي سقط في شراك الأيديولوجيا الإسلاموية فإن هناك نموذجا آخر للمثقف الرافض لهذه الأيديولوجيا. إذ نجده ينتقدها ويرفضها بشدة حتى باتت تلاحقه في منامه وكوابيسه.

"عمر" شخصية مثقفة وصحفي يعمل في إحدى الجرائد التي يعمل بها "احميدة" وصديقاهما "حميدو" و"علي خوجة" –هذا الأخير الذي كان ضحية جماعة أبي يزيد نتيجة أفكاره التي كان يحرص على نشرها في الجرائد.

عمر أيضا لم يكن أحسن حظا من صديقه، إذ لاقى حتفه هو الآخر بعد مقتل أخيه رشيد (أبو راتب) أمير إحدى الجماعات المسلحة من طرف رجال الأمن. فقرر أتباعه الانتقام له، فكان أول من بدأوا به أخوه عمر الذي كانت كثيرا ما تدور بينهما نقاشات وصراعات حادة، بخاصة بعد عودة رشيد من أفغانستان ومشاركته في الحرب الأفغانية؛ أين عاد بقناعات أيديولوجية ورؤى فكرية ودينية راسخة. لذلك لم تكن أفكار عمر لتعجب رشيد «أصبحت مائعا يا عمر

الطاغوت يسكن أرواحكم أنتم المثقفون كالجن

صم، بكم، عمي لا ترجعون

لماذا تخشون شرع الله

مسكونون بالشيطان الصليبي، مرعوبون من حكم الله لماذا؟»[12].

لم يكن رشيد يكتفي بإهانة أخيه وتهديده، بل كان يسخر من زوجته شهيناز ويصفها بالمتبرجة ما يجعل عمر يثور لكلامه ويرد عليه غاضبا: «ما هذه الترهات التي تقذف بها عن جهل شمالا ويمينا دون تقدير لمسؤولية الكلمة وعواقبها؟

وأضاف غاضبا

تجرؤ وتقول عني أنني مائع وحليف للطاغوت ما هذا الهراء؟

أ لأنني صحفي، تقول عني كل هذه الترهات؟ ثم مهددا لن أسمح لك البتة أن تتفوه بكلمات مشينة عن شهيناز »[13] .

بهذه الصورة مثّل الكاتب الصراع بين أخوين من بطن واحدة وعائلة جمعتهما تحت سقف واحد، إلا أنهما يختلفان فكريا وأيديولوجيا، ويرفض كل منهما الآخر لاعتقاد كل منهما أنه على حق والآخر هو المخطئ والمذنب.

أما "حميدو" الذي كان مولعا بالقراءة والكتابة الصحفية، فقد كان طلبة زوجته في معهد التاريخ كثيراً ما يسألونها عن كتابات زوجها في الصحافة «فتجيبهم أحيانا وتصمت أحيانا كثيرة جماعات الإسلام السياسي هاجسه الأول»[14].

الهاجس الذي سكن احميدة وأرَّقه هو موضوع الجماعات الإسلاموية، لا يتحدث ولا يكتب إلا عنهم، لذلك نجد زوجته وردة تتجنب في كثير من الأحيان الإجابة عن أسئلة طلبتها حول كتابات زوجها لتتساءل عن هذا الكابوس متى ينتهي، فقد شغل فكر زوجها حتى بات «يحدثها بإسهاب وفي أوقات متقطعة عن ما احتفظ به من ملاحظات حول "أبي يزيد" صاحب الحمار الذي أصبح جزءا من حياتهما اليومية»[15] ويسجل أهم نقاط التشابه إلى حد التطابق "بين أبي يزيد التاريخي" و"أبي يزيد التخيلي".

لقد بثت جماعة "أبي يزيد" الرعب والخوف في نفوس المثقفين كلما تذكروا العالم الذي يعيشون فيه وانتشار رائحة الموت في كل مكان؛ فها هو احميدة يرى كل «ليلة أشباحا ملثمين أو غير ملثمين على متن عربات مجنونة ينزلون كالقضاء كاللعنة الأسطورية، الرعب يحاصرنا، الموت يحاصرنا، تتسرب رائحة الفاجعة إلى البيوت»[16]. تكاد هذه الكوابيس لا تفارق احميدة أبداً، حتى أنه يتخيل نفسه كالجرذ يترقب الموت في كل مرة، «أراني كالجرذ، أترقب زارعي، أترقب الموت المتوحش، أترقب الرصاص، أرى السيف، أتحسس الخنجر وأشم خطوات الأشباح المتسربلة بجنح الظلام»[17] .

لقد باتت الأشباح والكوابيس تلاحق نخبة المثقفين أينما ذهبوا وأينما ولوا وجوههم، وأصبحوا يترقبون الموت في أي لحظة نتيجة رفض الآخر لاعتقادهم وسلوكهم وانتمائهم، مما أوقعهم ذلك في متاهة الموت. لذلك غالبا ما كانت نهايتهم إما الموت أو الانتحار أو الجنون أو الهروب، وإما الانضمام إلى الجماعات الإسلاموية تحت قهر الظروف وظلم المجتمع وقمع السلطة وخيبتهم السياسية.

2. المثقف والتطرف:

من المؤكد أن التطرف لم ينشأ اعتباطا، وإنما ساعدت عدة ظروف وعدة عوامل في نشوئة، قد تكون عوامل نفسية خالصة ناتجة عن ظروف غير طبيعية، أو راجعة إلى ظروف اجتماعية أو اقتصادية قاهرة، ويربطه البعض بالنظام السياسي. ونستطيع أن نتعرف على الشخصية المتطرفة من خلال ثلاث مستويات:

تتسم الشخصية المتطرفة على المستوى العقلي بأسلوب مغلق جامد التفكير أو بعدم القدرة على تقبل أية معتقدات تختلف عن معتقداتها أو أفكارها، ويميل هذا الشخص دائما

إلى النظر إلى معتقده على أنه صادق صدقا مطلقا ويميل إلى إدانة كل مختلف معه في الرأي.
وعلى المستوى الانفعالي يتسم بشدة الانفعال والغضب والتطرف والكراهية . أما على المستوى السلوكي فيتسم بالاندفاعية والعدوانية والميل إلى العنف[18].

تقدم رواية متاهات نوعين من التطرف. النوع الأول وهو المعروف بالتطرف الديني، ونوع آخر كشفت عنه الرواية من خلال صوت الراوي العليم وأصوات أخرى وهو المتطرف الاستئصالي في المستوى الفكري[19].
بالنسبة للمتطرف الديني وهو الغالب في النص، فيتخذ صفة التيار الواحد، يتدفق من بداية الرواية إلى نهايتها مشكلا تيمة أساسية ميزت الرواية من خلال ما تتلفظ به الشخصيات المتطرفة وما تقوم به من سلوكات وأفعال عنيفة كأعلى درجات التطرف كما بينا ذلك في العنصر السابق.
يعرض الراوي شخصية "أبي يزيد" الإرهابي وتطرفه من خلال فهمه السطحي للنصوص القرآنية فيما يخص بعض القضايا الدينية، والأخذ بظواهرها دون التعمق في المعنى، من أجل تحقيق غايته السياسية كما هو حال فتوى القتل والجهاد والزكاة في سبيل إقامة دولة إسلامية.
إلى جانب هذه الشخصية الأكثر تطرفا هناك شخصية أخرى تمثلت في أحد رجال الأمير "أبي يزيد" الذي ظهر كشخصية ثانوية دون تسميته. فقد حمله تطرفه إلى الانتقام ممن أساءوا إليه قبل التحاقه بالجماعة، وهناك نماذج أخرى متطرفة سيطرت على النص الروائي، غير أنه ليس هذا ما نريد الحديث عنه في هذه الدراسة. وإنما نريد كشف اللثام عن تطرف المثقف في حد ذاته والتطرف الموجه ضد المثقف.
نبدأ من هذا الأخير حيث كشفت الرواية إلى جانب المثقف المتطرف، العنف الموجه ضد المثقف وإقصائه جسديا وتكفيره واتهامه ومعاتبته وإلقاء اللوم عليه من طرف الجماعات الإسلاموية، بالاعتقاد أنهم على صواب وأنهم يطبقون شرع الله في أرضه بعكس المثقف الذي يعتبرونه إنسانا كافرا، طاغيا، عاتيا، يساعد ويقف إلى جانب أعدائهم وأعداء الله، لذلك وجب التخلص منهم.
"رشيد" حينما رجع من أفغانستان عاد وهو محمل بأيديولوجية مغايرة تماما لِما كان عليه في السابق. تغيرت نظرته إلى الكون والحياة، لذلك أصبح ينظر إلى أخيه "عمر" من زاوية أخرى غير الزاوية التي كان ينظره منها. "فعمر" في رأيه إنسان مائع، منحل أحمق تسكن الشياطين والجن روحه وأصحابه لتمنعهم عن عبادة الله وعن طريق الخير. لا يخشون ولا يخافون الله، ويتخذون الشياطين أولياءهم. بمساندتهم السلطة، هم برأيه صم بكم عمي لا يرجعون[20].

تحمل الملفوظات والاتهامات التي أطلقها "رشيد" أيديولوجيا متطرفة تعبر عن فكر استئصالي يرفض الآخر ويمقته، وفكر يحمل أحكاما مسبقة تنم عن الكره والحقد والبغض والإقصاء والإلغاء.

إن التطرف اللغوي والفكري الموجه ضد المثقف، لم يكن صادرا من طرف الجماعات الإسلاموية فقط، وإنما أيضا من طرف أولئك الذين ينتمون إلى السلطة -رجال الأمن- حماة البلاد والعباد، إذ أوقف أحدهم سائق السيارة التي يركبها "احميدة" وطلب منه إظهار وثائق السيارة، وبطاقة الهوية، والبطاقة المهنية التي ما إن رآها حتى انقلب وجهه وصار يطلق اتهامات هو وزملاؤه ويستهزؤون ويسخرون في غضب يصبغ وجوههم، ودوا لو أنهم يتخلصون منه.

«قال: صحفي؟

قلت: صحفي..

قال: أنتم أصحاب البلوى

قلت: البلوى؟؟

قال: أعداء البلاد..

قلت: نحن ؟

واقترب منه آخر يشبهه في البدلة والسحنة والبنية.

قال: هناك مشكل؟

قال الأول: صحافة ..

قال الثاني: هناك مشكل؟

قال الأول: يكتبون أي شيء.. خراء.. خزعبلات

قال الثاني: هم من قال أيضا أن العسكر أيضا يقتل؟

لا وطنية لهم مرتزقة، يهينون كل شيء .. الدولة، نحن، كل شيء..

قال الأول: تجار دم .. مرتزقة»[21].

تكشف الملفوظات التي تشكل منها الحوار عن دلالات أيديولوجية واضحة تنم هي الأخرى عن رفض هذا النوع من المثقف (الصحفي) الذي يعتبرونه سبب البلوى والمشاكل. لذلك فالنص يحاول القول في المستولى الدلالي للحوار الذي رصد العنف الرمزي من جانب واحد أن هؤلاء الصحفيين هم أسباب اشتعال الفتنة، فتكشف الشخصيات عن بنيتها الفكرية الاستئصالية. إذ يتهم رجال الأمن الصحافة بقولهم (أنتم أسباب البلوى، أعداء البلاد، لا وطنية لهم، يهينون كل شيء، الدولة، نحن، كل شيء، تجار دم، مرتزقة) فهذه الملفوظات بما تحمله من حقد وغل فيها الكثير من التطرف والتعصب والإقصاء، فإطلاق الأحكام هكذا عشوائيا لمجرد ما تكتبه الصحافة في الجزائر عن هؤلاء وأولئك لا يكون إلا إذا أحس المعني أو المتهم بالذنب وصدق ما يقال عنهم . وحينما يتهمونهم بتجار الدم والمرتزقة وينسبون إليهم سبب ما يحدث، فهذا يعني

أنهم يتهمونهم اتهامات باطلة قد لا تقف على دلائل وإثباتات صحيحة، مما يعني أن مثل هذا الكلام لا يصدر إلا عن شخصيات غير واعية بكلامها ليثبتوا مقابل ذلك تطرفهم الحاد تجاه المثقف.

إذا قلنا إن الكاتب يعي جيدا مضمون روايته واستطاع أن يتحكم في سير الأحداث وحركة شخصياته دون أن تتمرد عليه، لأنه كما يبدو اعتمد الواقع أكثر من التخييل، فإنه أحيانا ما يقع في تطرف يمارسه في حق شخصياته المتطرفة دينيا أو ضد الأحزاب التي ينتمون إليها. يعني أنه يمارس تطرفا ضد تطرف ليكشف للقارئ عن رؤيته «المحكومة بأيديولوجيته،(التي) تظهر في المستوى اللساني ، المتباين في لغة واصفة ولغة شكلت ألفاظها أحكاما خلال وصفها المتطرف، يطل منها الكاتب مفصحا عن نفسه، وعن كرهه لهذا النموذج من الشخصيات»[22] والتيار الذي تنتمي إليه، لأن الكاتب في الأصل بصدد كتابة عمل أدبي فني بعيدا عن إطلاق الأحكام والمواقف الأيديولوجية. فحينما يصف الراوي الجماعات الإسلامية بالأصولية والراديكالية في قولة: «كان انتصار الأصوليين الإسلاميين كاسحا في أول انتخابات محلية حرة في هذا البلد»[23] فهذا يعني أنه يطلق حكما متطرفا ضد الجماعات الإسلامية، بخاصة إذا افترضنا أن هذه الحركة في بداية ظهورها وتشكلها بعد أن غابت عن الساحة السياسية فترة من الزمن، أي أنها في بداية دعوتها لم تكن تميل إلى ممارسة العنف والتطرف إلا بعد فشل مشروع الانتخابات ، ولم يكن هناك أي عمل إرهابي بعد ولا أحد يتحدث عن جماعات إسلامية مسلحة، زيادة إلى ما تحمله كلمة أصولية من دلالات فكرية وسياسية متعصبة على الرغم من أن الكلمة في أصلها تعني التمسك بأصول الدين، ولا يمكن لهذا المصطلح أن يستعمل رديفا للتطرف والتعصب والإيذاء المتعمد، غير أنها في الرواية أُطلقت لتعني الإرهاب والرجعية والظلامية المعادية لكل تقدم، والإسلام لم يكن يوما ضد التقدم والتطور و« لم يكن الفكر الديني عبر التاريخ الإسلامي معيقا لتقدم العلم والمعرفة، بل إن حركة التقدم ومسيرته عموما تعتمد في نجاحها على انسجام عناصر القوة الروحية والمادية (الدينية والدنيوية)»[24].

فالكاتب حينما يطلق أحكاما متطرفة في روايته حتى وإن كان صادقا ورأيه صائب وحتى وإن بدا أن رأيه منبعث من نفس متأذية حانقة تعلن رفضها لمثل هذه الحركات عن طريق تصريحاته التي قلما تكشف عنها الرواية، فإن الرواية كعمل أدبي فني لا تسمح بذلك. بخاصة حينما يتدخل الكاتب -كما هو واضح – ليتحدث بدل شخصياته؛ فيمنع بذلك شخصياته الروائية من حرية التعبير عن مواقفها وآرائها. لذلك فالكاتب يعري نفسه بنفسه لتحضر أيديولوجيته التي حاول أن يخفيها خلف شخصياته، لكنه أخفق في ذلك لينسى أنه يكتب رواية، ويتجه إلى السرد المباشر والخطاب السياسي.

4 – المثقف الإسلاموي الجهادي:

عرضت الرواية نموذجين من المثقف الإسلاموي. "كمال منصور" معيد في الجامعة وطالب يحضر رسالة الماجستير، والدكتور "أبو إبراهيم" كلاهما يبدوان غير مقتنعين بأفكار ومبادئ وقيم الجماعات الإسلاموية- بعد مرور فترة من انضمامهما إلى الجماعة- لكن بخضوعهما لأوامر الجماعة والقبول بالقيام بأعمال لا إنسانية بعين الرضا –لاحقا- فهذا يؤكد انتماءهما إلى هذه الحركة.

سنتناول في هذه الدراسة شخصية كمال منصور دون شخصية الدكتور أبو إبراهيم لكون كمال هو من مارس عملية القتل باعتباره جهادا من أجل القضاء على كل من يقف في طريقهم أو يعمل إلى جانب السلطة.

تبدأ قصة كمال مع القتل بعد فراره من سجن "لامبيز" هو وعدد كبير من السجناء فعلى الرغم من خوفه وتردده إلا أنه قرر في الأخير أن يهرب مع رفقاء السجن «كنت خائفا أن أذبح لو رفضت الهروب ..وكنت خائفا أن أسقط تحت رصاص حراس السجن»[25]نهاية المثقف في كلتا الحالتين واحدة فهو بين نارين وعليه أن يختار إحداهما. لم يكن اختياره عن قناعة وإنما كان يتبع أمر الجماعة. ومن هنا يبدأ إحساس "كمال" بتشظي شخصيته وانشطارها، وعدم قدرته على اتخاذ قرار، ومن هنا أيضا تبدأ مسيرة شخصية فاشلة وسلبية، لها مبادؤها وقيمها. إلا أنها لا تستطيع أن تعلن عنها. يعلم أنه دائما على خطأ يلوم نفسه يعاتبها يرفض ضعفها .. كل ذلك في خياله ولا يستطيع أن يقرر أو حتى أن يقدم وجهة نظره. فكل ما عليه هو التنفيذ لا غير، لذلك تعوّد على ذلك ورمى بكل ما يؤمن به خلفه وسار نحو طريق مجهول.

بداية كمال مع عالم الأدغال والقتل كانت حينما وافق بالتدريب على السلاح بعد أن سأله «هل تدربت على السلاح من قبل؟

تدربت على ذلك عندما كنت في الخدمة العسكرية، كان هذا منذ زمن طويل .

ابتداء من الغد إن شاء الله ستكون في سرية الفتح وتتدرب مع إخوانك على السلاح من جديد.

أنا رهن إشارة أميرنا حفظه الله.

غداً ستتوجه وإخوان لك إن شاء الله إلى جبال اسطنبول وستجدون جماعة أبي مصعب في انتظاركم»[26] وقد نظرت إليه الجماعة بعين الرضا والقبول ورأت فيه الطاعة والولاء. يبدو كمال أنه راض بما يقوم به، وبدأ يحضر نفسه لِم سيأتي من ترقيات، فبعد أن كان يقوم بأعمال الغسل والطهي، وجلب الماء، وجمع الحطب أصبح أحد أهم العناصر الفاعلة في المجموعة، بل أصبح يطمح أن يصبح أميرا فيما بعد.

ينتقل بنا الراوي "كمال" ليحكي لنا قصته مع أول عملية يقوم بها، وقد تخلص من الخوف الذي كان يسيطر عليه سابقا فيقول: «كانت أول عملية لي هجوم على قطار المسافرين .. أتلفنا السكة الحديدية وصعدنا القطار .. كان الوقت ليلا .. أخرجنا المسافرين المرعوبين، أمرني أبو مصعب بذبح خمسة مسافرين، ترددت في البداية،

لكنني انقضضت عليهم كالوحش الضاري الذي كان تائها في داخلي، ظلوا يصرخون ويشخرون، وضعت السكين على رقابهم، نطت أصواتهم العاوية إلى قلبي، وانغرزت كالمسامير، لكنني وضعت السكين على رقابهم وكان الوقت ظلاما، أفرغنا البنزين في القطار واشتعلت النيران، هرب آخرون وسط الدجى، وأطلقنا عليهم الرصاص سقط منهم الكثير، ورحنا ننقض عليهم بالخناجر والسواطير، الأطفال والنساء يبكون .. تركناهم في دمائهم يتمرغون، ولم يعد قلبي يخفق، توقف عن الخفقان، أخذنا طريق النهر ثم ضعنا في قلب الظلام وفي أدغال الغابة، ثم صعدنا إلى الجبل..»[27] .

كما لاحظنا، فالراوي سمح لشخصيته الروائية أن تتحدث عن نفسها وتخبرنا بقصتها أثناء تواجدها بالجبل وتفصح عن مشاعرها ومكنوناتها والتعبير عن كل ما يجول بخاطرها، مما سمح للقارئ التعرف على هذه الشخصية عن كثب، والكشف عن ذلك الصراع النفسي الذي ينم عن انشطار الشخصية، والذي أفصح عنه منذ بداية الأحداث، بخاصة حينما رأى صديقه رضوان يُذبح أمام عينيه لانتقاداته الصارخة في وجه الحزب الذي أخذ عليهم آليتهم وحرفيتهم في تأويل القرآن والسنة.

كمال كانت تتقاسمه أيديولوجيتان، أيديولوجيا تدعوه إلى التمسك بقيمه وأخلاقه وبالتالي التسامح والتراجع عن قرار القتل، وأيديولوجيا تجذبه نحو العنف والقتل وعدم الاستسلام لعواطفه، وقد انتصرت هذه الأخيرة بعد قرار لا يحتاج إلى تفكير معمق، وإن كان في حديثه يفصل بين رغبتين بكلمة "لكنني"، مما يعني أنه استطاع التغلب على تلك المشاعر والأحاسيس التي كانت تقلقه وتمنع عنه النوم، إذ لم يسمح لتلك الأصوات التي كانت تنط إلى قلبه وتنغرز كالمسامير أن تؤثر عليه، وكأننا به يريد أن يقول أن هذه الأصوات على الرغم من أنها بقيت عالقة في ذهنه متشبثة بقلبه، إلا أنه يقطع أملها في الحياة بكلمة " لكنني" فيقول: (ترددت في البداية لكنني[...]، نطت أصواتهم العاوية إلى قلبي، لكنني[...]) والنتيجة كانت كالآتي:

(أطلقنا عليهم الرصاص، رحنا ننقض عليهم بالخناجر والسواطير).

والأهم من ذلك نجده يعلن انتصاره وتغلّبه في الأخير على أفكاره والسيطرة على مشاعره ليؤكد غلبة قانون الغاب والبقاء للأقوى في قوله:

لم يعد قلبي يخفق / توقف عن الخفقان/ ضعنا في قلب الظلام/ ثم صعدنا الجبل.

توحي كلمات هذه العبارة المجزأة إلى استسلام كمال لأيديولوجية العنف وانتصارها ليدخل في متاهة الظلم والانحراف، بقلب راض ونفس مطمئنة لتكشف الرواية عن نوع آخر لشخصية المثقف الإسلاموي القاتل العنيف الذي لا يهتم إلا بنفسه، ولا يرغب إلا في تحقيق مصالحه واعتلاء سدة الحكم والسلطة بأي طريقة وبأي ثمن. هو مثقف أكثر من أن نقول عنه أنه سلبي أو انتهازي أو أناني أو خائن. هو كل هذه الصفات، فبعدما اشتغلت الرواية الجزائرية على الكشف عن المثقف الثوري الرافض المناضل، فإذا بالقارئ

يصطدم بهذا النموذج الجديد الذي كشفت عنه رواية الأزمة، وإن كانت هذه الأخيرة هي التي خلقت هذا النموذج وساعدت على ولادته وظهوره.

إذا تأملنا الملفوظات التالية: (لم يعد، توقف، ضعنا، صعدنا) ألفيناها تحمل دلالات ومعان تعكس دينامية الشخصية، (فلم يعد) تشير إلى أنه في السابق كان يحس بالخوف والتوتر حينما يفكر في اللحاق بالجماعة المسلحة، أما الآن وبعد اقتناعه بأفكار الجماعة وأيديولوجيتهم فلم يعد هناك ما يخيفه، وما يؤكد ذلك الفعل (توقف) الذي يضع حدا للقلق والخوف، ليصبح أكثر صلابة وذلك بقطع صلته نهائيا بشخصية كمال المسالمة وبكل العلاقات التي تربطه بمجتمعه. لكن هذا الانتقال المفاجئ في حياته يرمي به في متاهة الظلام والضياع كما يشير إلى ذلك عنوان المدونة، فحينما يقول: (ضعنا في قلب الظلام) فإن الضياع هنا يعني التيهان في عالم مجهول المصير يغشاه السواد وضبابية الرؤية، ثم يختم كلامه باختياره الصعود إلى الجبل، وهو صعود يتخيله نحو الأعلى، في حين يمثل صعودا إلى الهاوية، إذ إن الصعود إلى الجبل لا يعني الصعود إلى القمة بقدر ما يعني هبوطا إلى الحضيض؛ لأن كلمة "الصعود" هنا تحمل دلالة سلبية عكس ظاهرها ومعناها اللغوي الذي يشير إلى العلو والارتقاء، لذلك لمسنا في الشخصية نوعا من التردد والقلق الوجودي قبل الصعود، ربما يرجع ذلك لكونه يدرك أنه بقدر علوه يكون هبوطه.

من خلال ما سبق يتضح أن الكاتب وضع أمام القارئ صورة جديدة. هي صورة مثقف آخر يحتاج إلى من يأخذ بيده ويوقظه من غفلته. يذّكِّره بدينه وقيمه وعاداته وأفكاره التي كان يسعى إلى نشرها في يوم من الأيام.

الإحالات:

[1] ينظر خير الدين حمادي ،من تيار فكري إلى قوة سياسية ، مجل الوحدة ،ع538، اكتوبر 1990، ص26.
[2] صالح فيلالي : أيديولوجيات الحركة الوطنية الجزائرية ، الأزمة الجزائرية الخلفيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ط2 ،1999، ص68
[3] نفسه، ص69.
[4] - حسن بركة: أبعاد الأزمة في الجزائر - ***المنطلقات، الانعكاسات، النتائج، شركة دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان، ط1، 1997*** ، ص 40.
[5] سيفرين لابا: الإسلاميون في الجزائر بين صناديق الانتخابات والأدغال، ترجمة حماد إبراهيم، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط1، 2003، ص 193.
[6] اومقران: البحث عن الذات في الرواية الجزائرية الطاهر وطار، دار العرب للنشر والتوزيع، وهران، دط ، 2005، ص 110.
[7] ينظر عبد السلام حيدر: الأصولي في الرواية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،ط1، 2003، ص 194.
[8] الشريف حبيلة: الرواية والعنف، ***دراسة سوسيو نصية في الرواية الجزائرية المعاصرة***،عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2010.،ص 241.
[9] احميدة عياشي: متاهات ليل الفتنة ، منشورات البرزخ، الجزائر، (د ط)، 2003، ص 09. ص 158.
[10] نفسه، 159، 160.
[11] الشريف حبيلة: الرواية والعنف، ص232.
[12] احميدة عياشي: متاهات، ص214.
[13] نقسه، ص215.
[14] نفسه، ص11.
[15] نفسه، ص11.
[16] نفسه، ص 131 .
[17] نفسه، ص 127 .
[18] ينظر حسين عبد الرحمن، أحمد رشوان: الإرهاب والتطرف من منظور علم الاجتماع، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية،(د،ط)، 2002، ص 29.
[19] الشريف حبيلة: الرواية والعنف، ص 251.
[20] ينظر احميدة عياشي: متاهات ، ص214 .
[21] نفسه، ص52،51.
[22] الشريف حبيله: الرواية والعنف، ص243.
[23] احميدة عياشي: متاهات ص159.
[24] رزان محمد إبراهيم: خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة، دار الشروق للنشر والتوزيع ط1،2003، ص221.
[25] احميدة عياشي: متاهات، ص260.
[26] نفسه، ص 259.
[27] نفسه، ص 261.